عبد الغفار مكاوي

محاولة لقراءة فكره

بقلم: د. حمدي بشير محمد علي(*)

يعتبر عبد الغفار مكاوي من صفوة المثقفين وخيرة المبدعين وطليعة المترجمين والباحثين، يمكن تصنيفه من الجيل الفلسفي الجديد الداعي لعقلانية عربية متنورة ذات طابع تحرري ديمقراطي وتجديدي، وكان سفره إلى ألمانيا فرصة للغوص في مكنونات الأدب والفلسفة الألمانية مما فتح له أبوابًا على الفسلفة المثالية الألمانية وفلسفة هيدغر توصله لنيل شهادة الدكتوراه في العام ١٩٦٢م، ولذلك كان فكره همزة الوصل والاتصال والحوار التاريخية الضرورية بين ثقافتين وعالمين: العربي والغربي، وجسر عبور وانفتاح نحو الآخر عبر ترجماته وكتاباته واختياراته في الشعر والفلسفة والفكر، مما يشكل إعادة نظر في الأسئلة المطروحة منذ ما ندعوه بعصر الإحياء أو النهضة العربية في القرنين المنصرمين وتقديم إشكالياتها وحقلها العام في ضوء جديد يجلو أبعادها و يعيدنا إلى جذورها، أي إلى نواتها الأولى. ورغم رحيله (عن عمر يناهز ثلاثة وثمانين عامًا فى ٢٤ ديسمبر ٢٠١٢) فسيظل حاضرًا في المشهد الثقافي والفكري المصري بآثاره الفكرية والأدبية، وأهمها مدرسة الحكمة، المنقذ، الحكماء السبعة، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، نظرية أفلاطون عن الحقيقة، جذور الاستبداد، بالإضافة إلى ترجمته لأعمال كانط وهيدجر وأعمال أدبية ونقدية كثيرة.

ورغم تخصصه فى الفلسفة الغربية على كثرة تياراتها ومذاهبها، فقد اهتم أيضا بالفلسفة الشرقية لمصر القديمة ووادى الرافدين والسومريين والبابليين والآشوريين، حيث يتضح من القراءة التحليلية لفكره مدى إنجذابه لأدب العصورالقديمة، الأمر الذى دفعه لتأليف كتابه (جذورالاستبداد) الذى عرض فيه كيف أن أزمة الحكم الفردى وجبروت التسلط المطلق لم

(*) باحث ومحلل سياسى – عضو المكتب الفنى لوزير التجارة والصناعة.

تكن فى أحد جوانبها إلا انعكاسًا لأزمة الحكم الإلهى نفسه، وكان هدفه من هذا الكتاب قراءة نصوص أدب الحكمة البابلية قراءة تقربها للقارىء المعاصر وتكشف له عن أعماقها الدفينة بعد تاريخ طويل من نظم الحكم والقيم والمعرفة والوعي على مدى ثلاثة آلاف سنة أو يزيد، والنظر في جذور اللاحرية والظلم والقهر الذي عاناه أبناء حضاراتنا القديمة ولم تزل ظلاله و أصداؤه المعتمة تتردد حتى اليوم في صرخات الشكوى والشك.

ولعل إيمانه بالحرية هو ما جعله يكتب هذا الكتاب الذى ربط فيه بين الإنتاج الأدبى فى العصورالقديمة، وأنظمة الحكم الاستبدادية، حيث يقدم قراءة وافية لأشهر النصوص البابلية في إطار سياقاتها المختلفة، قراءة تاريخية-ذاتية ونقدية في آن واحد، و قراءة تهتدي بفلسفة التفسير أو التأويل المعاصرة، بحيث يتحول فعل القراءة إلى تجربة حية يتعانق فيها الحاضر والماضي، وينصهر أفق القارىء المعاصر بقدر الطاقة مع أفق الكاتب، فليست حضاراتنا القديمة هي «حضارات الموت والظلام» التي انقضت وإنما هي تراث عريق وثقيل لا تزال جوانبه السلبية فعالة في تكويننا وسلوكنا الحاضر، ويتوجب علينا نحن أن نستوعبه وننقده لكي نتجاوزه بإبداع تراث جديد أكثر حرية وعدلًا وأملًا وأقل بؤسًا وظلمًا واستبدادًا.

ويكشف كتاب جذور الاستبداد أيضًا عن شخصية الرجل الذى يمتلك الجرأة لقول ما يعتقده حقًا ويدافع عنه بقوة الفيلسوف وبلاغة الكاتب المتمكن دون أى اعتبار، فقدم دراساته فى نقد الاستبداد بكل صوره، وكان هذا جانب أصيل فى تجربته الفلسفية والسياسية، ويكشف عن تأثره بشدة لما يحدث فى الواقع العربى، ومحاولته التغيير عن طريق الفكر والإبداع و ليس عن طريق العمل السياسى .

وفى رأيه أن التاريخ لا يعيد نفسه أبدا وأن لكل حادثة من الحوادث التاريخية التي تبدو متشابهة أو متقاربة طبيعتها الخاصة وسياقها المحدد بظروفها وأسبابها ونتائجها المختلفة، وأن علم التاريخ الذي يبحث عن الحقيقة الموضوعية الخالصة لا يجوز له أن يصبح فرعًا لعلم الوراثة أو علم النفس والطباع، و إذا كان الطغيان الذي تعددت أشكاله ودوافعه وآثاره على مر العصور هو الذي يوحي بذلك التشابه فإن هذا لا يعفي المؤرخ من دراسة كل حالة على حدة و كل حادث في سياقه الخاص حتى لا يقع في مخاطر الإسقاط والهوى والتعميم.

وقد انتقد نظرية صدام الحضارات لهنتجتون، وأكد أن مصطلح صراع الحضارات مفهوم استعمارى خاطئ، قصد به مصلحة أمريكا والصهيونية، واستثمر فى العراق فى أسوأ صورة على حساب الشعب العراقي، وربما يجرب فى بلاد عربية أخرى، وان هذا المفهوم من صنع أجهزة الاستخبارات الغربية، ويعتبر هنتنجتون عالمًا مزيفًا لأنه يغالط فى الحقائق، وفى معلوماته عن الفكر الشرقى سواء كان عربيًا إسلاميًا، أو شرقيًا صينيًا.

ولذلك فهو يرى أن المهمة المنتظرة من الشرقي المشتغل «بعلوم الحكمة» هو بلورة نسق فكرى محكم مترابط من المفاهيم، لمواجهة جدل الصراع الحتمي الذي كتب على أبناء هذا الجيل والأجيال التالية أن يخوضوه في سبيل تأسيس الحرية، وفى هذا النسق تلتئم معاني التقدم والتحرر والنهضة والوعي والتحضر والتغيير والتنوير.

ويرى أن التغلغل في أزمات الإنسان العادي وآلامه الجسدية والروحية وفي أحشاء واقعنا الذي يغص بالأحزان والآمال الفردية والجماعية المحبطة وتحليلها وردها إلى عناصرها و«ثوابتها وبناها اللازمنية وسط خضم التحولات والضغوط التي تنهال عليه وتجرفه بعيدًا عما نسميه الأصالة والهوية وتحقيق الذات والإبداع والحرية... الخ كل ذلك هو الضمان الوحيد.

ومن هنا يغترب «التفلسف» عن حقيقته وواقعه أو تغترب الحقيقة والواقع عنه سواء عند الإطلال عليها من برج منطقي وجدلي متعال عليها أو من ناحية أخرى في السقوط في حمأة التشوش الغوغائي والخطابي وحمياه والغرق في دوي الطبول والأبواق التي تدق عليها وتنفخ فيها الأنا النرجسية المتضخمة المتصارعة على الشهرة الرخيصة والمجد الزائف.

وهز يرى أن البداية «الاستقرائية» تساعد الفيلسوف على وضع قدميه على الطريق الطويل نحو فكر عربي مستقل وناج من واقعه ومتحرر من القوالب الجاهزة التي طالما حشر فيها رغم أنفه، والبداية الحقيقية-أو إحدى البدايات على أقل تقدير-للتأسيس النظري والمنهجي لـ «فلسفة عربية» مستقلة وحميمة، كثر التساؤل عنها، وطال افتقادها، وانتظار فجرها الذي بدأت خيوطه الأولى في الفترة الأخيرة في اختراق ظلمات الليل العربي على استحياء...، إن الرجل العادي أو الإنسان الصغيركما يسمى في بعض اللغات ينتظر «سقراط الجديد» يتوقع منه أن يلتفت إلى معاناته التي يكاد تاريخ الفلسفة أن يخلو منها وذلك قبل أن يبلورها في نسق فكري

مترابط، وليس معنى هذا أن نطالب «المتفلسف» العربي بأن يكون شاعرًا وفنانًا ولا حتى بأن يكون باحثًا ميدانيًا بل معناه أن نطالبه بالبدء من التجربة الحية ومشاركة «الناس» الذين طالما تجاهلهم الفلاسفة مواقفهم وتجاربهم واختياراتهم... إلخ، قبل تحليلها وتفسيرها وردها إلى شروطها وأسسها الأولى، فالفلسفات الكبرى تؤكد أنها لم تخل أبدًا من قدر من المشاركة في «الواقع» والتعاطف معه أو الاندهاش منه ومحاولة تجاوزه ونقده والشك في أوضاعه وأنها لم تنفصل عنه ولا قصرت في القيام بدورها النقدي له بأساليبها الصورية والتعميمية المجردة وغيرالمباشرة، وأن تكون مشاركة الناس حياتهم وتبصيرهم بحقيقتهم وحقائق واقعهم وتقديم دليل عقلي وعملي يوجه تفكيرهم واعتقادهم وسلوكهم ويساعدهم على «صنع» حاضرهم وتشكيل مستقبلهم إلى غير ذلك من مهام معرفية وأخلاقية وجمالية، وان تكون هذه وغيرها هي بعض الواجبات الملقاة على كتفي «سقراط العربي».

ثم يعرض كيف طبق هذا المنهج فى كتابه جذور الاستبداد فى الصفحات الأولى تحت عنوان: «حكمة بابل فلسفة هي أم حكمة؟»، بهدف تفنيد الرأي الشائع-صراحة أو ضمنا- لمعظم مؤرخي الفلسفة الغربية وأتباعهم من الشرق وهو أن الفلسفة-معناها العقلي والمنهجي الذي اتخذته منذ نشأتها مع العلم ومحاولاتها للانفصال عن الدين والأسطورة في مجتمع دولة المدينة اليونانية الحرة -شيء غربي- محض، وأن «حكمة» الشرق-الدينية والأخلاقية المتجهة في جملتها إلى الخلاص والتطهر والتوافق مع الطبيعة الخارجية أو الداخلية لا السيطرة عليها والتحكم فيها- كانت في أفضل الأحوال مجرد طرقات على بابها أو بشائر من نور فجرها بحيث يستطيع المؤرخ الغربي أن يغفلها من حسابه دون أن يشعر بالخسارة أو بتأنيب الضمير.

ولذلك نجده يناقش بشيء من التفصيل هذا التمركز الغربي حول الأنا المتسلطة والمسيطرة حتى اليوم على الباطن والظاهر والإنسان والطبيعة، ويخلص إلى استحالة إنكار وجود «فلسفة» شرقية بالمعنى العام الذي يفهم من مجموعة الرؤى الكلية والمواقف التأملية في مغزى الحياة والموت والخلق والمصير والخير والشر، والعدل والظلم، والاختيار والجبر... إلخ، مهما جاءت هذه التأملات في الإطار الديني والأخلاقي الموروث، وفي لغة المجاز الشعرية والأسطورية، وان هذه القضية تكاد اليوم أن تكون محسومة إذ ترسخ الاقتناع لدى المنصفين الغربيين أنفسهم بأن للحكمة الشرقية حقها المشروع في الوجود داخل الإطار النوعي الخاص بها، لكن الأهم من ذلك-في تقديره -هو المهمة الملقاة على أبناء الشرق أنفسهم- والعرب بوجه خاص في تشييد

أبنيتهم النظرية وأنساقهم الفكرية والمعرفية التي تنبع - كما ذكر - من تجارب واقعهم المأزوم، وتتمتع بقدر معقول من الاستقلال والخصوصية التي لا تنزلق إلى مهاوي التعصب ولا تندفع إلى التطاول على «الآخر» بدلًا من نقده نقدا حرًا أمينًا أو التحدي الفج الذي تتردد صيحاته المتشنجة كثيرا في هذه الأيام.

ويستطرد قائلًا: «أن مواجهة المعاناة المتجددة من الطغيان على اختلاف صوره تأتي في مقدمة هذه التجارب كما أن محاولة بلورتها» فكريًا كما سبق القول أن تكون إضافة أساسية إلى الفلسفة أو «الحكمة العالمية» كما سماها «كانط» وخطوة مهمة على طريق الأصالة المنشودة من جانب الشرقي الذي يواجه في الوقت نفسه محاولات ضارية مستميتة على كافة المستويات لتكريس تبعيته لنموذج الآخر المستغل المهيمن، الأمر الذى يساعده على الخروج من مأزق الحكم عليه بالانتحار الحضاري.

ويقول: أن الفكر المعاصر يضع الإنسان في موضع القلب من اهتمامه، فهل آن الأوان لكي نهتم بالإنسان بكيانه العيني الحي الدافئ بدلًا من الاختناق في قبضة المجردات الهابطة علينا من أعلى؟ كيف نوفق بين السر الذي ورثناه في دمنا من الحضارة القديمة وبين اللوجوس؟ كيف نناغم بين التراث والتقنية التي لا غنى عنها؟ كيف نتجنب آفات الروح الغربية من ضياع الروح والانغماس في روتين الآلة والعمل وانكماش الضمير مع تضخم العضل، ونظل مع ذلك معاصرين ومستعدين لتحدي العصر؟ كيف نجانس بين قيمنا وآمالنا؟.

ويجيب د.مكاوي بوضوح مؤكدًا: ما زلت أذكر هذا البيت النادر من «فاوست الثانية»: «لا يستحق الحرية والحياة إلا من يغزوهما كل يوم .. في كل لحظة .. في كل فعل ..» لكن كيف؟ بالمشاركة .. فالحرية الحقيقية ليست حرية من أجل.. بل حرية لأجل .. لأجل ماذا؟ ويكمل مشددًا: الحرية تؤكد التحرر من الباطن .. والمسؤولية هي صميم التحرر.. والاتجاه إلى مشكلات أمتنا هو لب المسؤولية .. والشخص الحي المشارك الواعي بتفرد لحظته التاريخية هو حامل هذا كله، الفيلسوف يمكن أن يكون في صميمه فنانًا وأديبًا انتزع الفكرة المجردة من إطارها المحسوس وقنع بالنواة الجافة دون الثمرة الحية، وأن الفنان والأديب في حقيقتيهما فيلسوف كسا الفكرة بالصورة الحسية وأحياها بالعاطفة الجياشة. ولن يرضى الفيلسوف أن نجعله شاعرًا أو أديبًا، كما لن يسعد الأديب والشاعر أن نحشرهما مع الفلاسفة في نظام أو نسق فلسفي محدد .. ولكن المقصود أن التفاعل بينهما عميق وأكيد وإن يكن غير مباشر

وشديد التعقيد، وأنه قد آن الأوان لرفع الحواجز السميكة و إزالة الأسلاك الشائكة التي طالما فصلت بينهما.

وحاصل القول، أن ما يمكن تحصيله وتلخيصه عن الدكتور عبدالغفار مكاوي هو انه عاش عمره المديد باحثا دؤوبًا ودارسًا مدققًا وناقدًا رفيعًا متفلسفًا وفيلسوفًا شاعرًا، مترهبنًا في محاريب الفن والأدب والفلسفة، انتهج منهج الحدس العاطفي والوجداني مع النصوص الأدبية والفلسفية، وكان حريصًا كل الحرص كله على ألا ينأى بنفسه عن واقعه وألا يكون محايدًا تجاه الإنسان وقضاياه، بل إنه سعى إلى بلورة نظرة فلسفية تتيح له التأمل الهادئ والتقليب المستمر في بنيات عالمه، وظل في كل ميدان ومضمار متملكًا أدواته، باحثا عن الحقيقة أينما كانت. ولذلك تنوع إسهامه الفكرى المتشعب فقدم خدمات عديدة للأدب الحديث والفكر المعاصر، لم يحظ بالاهتمام البالغ، والتقدير الأدبي، من رجالات الفلسفة والأدب والثقافة والصحافة والإعلام.

obeikandl.com